بلاغة الترسل عند عبد الحميد بن يحيى الكاتب.. قراءة في ضوء جمالية التلقي

الأستاذ عبد الله كروم – جامعة العقيد أحمد دراية – أدرار– الجزائر

توطـــئة :

يمثل ترسل عبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت132هـــ) قيمة تاريخية وجمالية؛ لأنه نشأ في ظروف سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية متنوعة ومختلفة شكلت عقليته المنفتحة، وثقافته الواسعة، وخبرته الكبيرة، وتجاربه المتعددة، وحسه المرهف، فتهيأ الجو لميلاد كاتب مبدع خلاق، استطاع أن يشكل أفق انتظار تاريخي للنثر الفني القديم، يصبح فيه القدوة للمترسلين من بعده.

ولكن رسائل عبد الحميد لم تصلنا كاملة، بل ضاع معظمها، فقد ذكر ابن النديم أن رسائله بلغت ألف ورقة،إلا أن الأستاذ إحسان عباس الذي حقق الرسائل وجمعها في كتابه:" عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء " لم يحص أكثر من خمسين ورقة، وفي هذا دليل على ضياع معظم نثر عبد الحميد. على الرغم من أن الدولة قد ترسخت دعائمها، و أنشئت الدواوين وعربت، واستعار العرب كثيراً من النظم الأجنبية[1] لتثبيت الملك، والقدرة على مسايرة الظروف الجديدة.

رسائل عبد الحميد في ضوء تجربة التلقي:

أولاً:أفق الانتظار (l'horizon d'attente):

[1] – الفن و مذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ، ص:99.

والحق أن الرسالة بدأت تتدرج في الرقي بمرور الزمن، مستفيدة من التعريب والترجمة، والجدال بين المذاهب والتيارات السياسية والكلامية، وتوارد الخطباء على هذا الفن حتى أصبح لدى الجمهور خبرة وتجربة جمالية (expérience esthétique) قائمة على التروي والتحبير والإيجاز، والسجع وبداية التحرر منه، وبروز ظواهر فنية في التوازن والترادف والاتكاء على الحال وخصوصاً عند مدرسة سالم. وتشكل أفق الانتظار لنثر عبد الحميد من المظاهر التالية:

1- الميل إلى التجمل والتأنق: وهذا لا يعني عدم جودة الرسائل من قبل، فقد كانت رسائل العصر الجاهلي – على قلتها – قصيرة، وتعبر عن الجمل بأقصر الألفاظ، وتعتمد على الصور والتوازن والإيقاع الصوتي[1]، إلا أن جل الباحثين لا يطمئنون إلى رسائل هذا العصر بسبب قلتها، واختلاف الرواة في تثبيتها، ومن بين رسائل هذا العصر رسالة المنذر الأكبر إلى أنوشروان ملك الفرس في صفة جارية، ورسالة المتلمس أو صحيفة المتلمس التي جرى عليها المثل، وهي رسالة كتبها ملك الحيرة إلى عامله بالبحرين ليقتل المتلمس وفيها « باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المكعبر أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيّاً »[2].

ورسائل صدر الإسلام تقتصر على البساطة والسهولة والبعد عن التكلف، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسهب في الرسالة لأن هذا اللون من الكتابة ناشئ عن جدة، ومبتدئ عن انطلاقة حقيقية، وليست له تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة، واتبع الخلفاء الراشدون الرسول اتباعاً دينياً لا أدبياً؛ فالرسالة في هذا العهد ليست أدبية لأنها تنشد الدعوة والإفهام [3]، وإن رأى البعض أنها كانت أدبية فنية[1].

1 – الأدب الجاهلي، غازي طليمات وعرفات الأشقر، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق :دار الفكر ،ط1 ، 1422هـ 2002م، ص :720

2 – المصدر نفسه، ص: 717 ؛ جمهرة رسائل العرب، احمد صفوت، ج1،ص: 13.

3 – نشأة الكتابة الفنية، حسين نصار، ص :65.

وعندما آل الأمر للأمويين اهتموا بالترسل، وأفرد له معاوية ديواناً خاصاً به وانبرى له أكفأ الكتاب براعة وحذقاً، وبدأ التحبير والتروي ينساب في الرسالة انسياباً، ويتخللها، ولعل الانزياحات الجمالية الأولى نلمسها في رسالة[2] بعث بها يزيد بن معاوية (ت64هـ) إلى أهل المدينة يقول فيها: « وإني والله قد لبستكم فأخلقتكم[3]، ورفعتكم على رأسي، ثم على عيني، ثم على فمي، ثم على بطني، وأيم والله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة، أقل بها عددكم، وأترككم بها أحاديث تنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود».

وعمد الوليد في زمن خلافته إلى المبالغة في التأنق والزخرفة، فهو أكثر خلفاء بني أمية ميلاً إلى التزين، وهو أول من كتب في الطوامير[4] وأمر أن تعظم رسائله، ويجلل فيها الخط الذي يكاتب به، وأن يكون بخلاف الخط الذي يتكاتب به الناس[5]، وعندما آل الأمر إلى الإمام العادل عمرو بن عبد العزيز أمر الكتاب بالإيجاز والاقتصاد في الورق، وتوالى الاعتناء بالتجويد والتحسين والتجميل في صياغة الرسالة ،حتى إذا بلغ عصر هشام (105-125هـ) بلغت ذروتها، وتزينت بحلي مدرسة سالم كما سنرى.

2- السجع و بدايات التحرر منه:

كان السجع وسيلة بلاغية توشى به الرسائل، ويعتبر علامة من علامات الإجادة والبراعة، وظل ملازماً لها منذ نشأتها، ثم ازداد طغياناً في المرحلة الأولى من العصر الأموي بسبب الفتن والجدل، وحاجة كل طائفة إلى الحجة و البرهان من جهة، وبسبب تلاحم

---

1 - الحياة الأدبية من البعثة المحمدية إلى نهاية الخلافة الراشدة –النثر أنموذجاً-

(أطروحة دكتوراه) للطالب: محمد حجازي ، إشراف: د. طاهر حجار، جامعة الجزائر، الموسم: 2003-2004م ص: 293.294.

2 - جمهرة رسائل العرب، ج2، ص: 94.

3 - الخلق: من الثياب القديم البالي

4 - الطوامير: الكتب الكبيرة

5 - العصر الإسلامي، شوقي ضيف، ص:470 .

فني الخطابة والرسالة معاً من جهة أخرى، « وقد ارتفعت لغة الكتابة إلى لغة الخطابة بل أخذت تستعيد منها عاريات، تضمها إلى نفسها، فتظهر كأنها منها لحماً ودماً »[1]. وظهر السجع في المراسلات بين الخصوم من الخوارج والشيعة والأمويين، ومن ذلك رسالتان بين الحجاج[2] وقطري بن الفجاءة[3] أوردهما الجاحظ في كتابه« البيان والتبيين» ومما جاء في الرسالتين[4] قول الحجاج في كتابه لقطري بن الفجاءة « إنك عاص لله وولاة أمره، غير أنك أعرابي جلف أمي، تستطعم الكسرة، وتشتفي[5] بالتمرة والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة فلحق بك طغام[6]، مثل ما صليت به من العيش، يهزون الرماح

[1] – نشأة الكتابة الفنية ، المصدر السابق ، ص :77.

[2] – الحجاج بن يوسف (40-95هـ) : من أشهر عمال وفصحاء بني أمية ، و أصلبهم عوداً ، قاتل عبد الله بن الزبير، ولاه عبد الملك على العراق و خراسان، أسهم في توطيد الملك لبني أمية .

[3] – قطري بن الفجاءة (ت 78هـ) : فارس وشاعر و خطيب عربي مفوه ، ينتمي إلى طائفة الخوارج الأزارقة، خرج على بني أمية وقاتلهم لمدة ثلاث عشرة سنة .

[4] – البيان و التبيين ، الجاحظ ، ج2 ، ص : 320 وينظر: تطور الأساليب النثرية، أنيس المقدسي ، ص ص : 122، 129؛ والعصر الإسلامي، شوقي ضيف ، ص : 458.

[5] – تشتفي : تطلب الشفاء

[6] – طغام : أراذل القوم

ويستنشقون الرياح » ومما رد به القطري «كتبت إلي تذكر أني أعرابي جلف، أمي أستطعم الكسرة، وأشتفى بالتمرة! ولعمري يا ابن أم الحجاج إنك لميت في جبتك، مطلغم[1] في طريقتك، واه في وثيقتك[2]، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك (...) فوالذي نفس قطري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليست كتصدير المقال، مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك وأن يمنحني مهجتك[3] ».

ولا تكاد تخلو رسالة رسمية من السجع لأنه صار لازمة، وعلامة على التفوق ودحض حجة الخصم، كما ترجى قطري في رسالته إلى الحجاج السالفة الذكر، ولكن مع مطلع القرن الثاني للهجرة بدأت مظاهر التحرر من السجع تلوح في الأفق، ولا سيما مع الرسائل الوعظية عند الحسن البصري وغيلان الدمشقي، إذ كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يطلب من الوعاظ النصائح والإرشادات، فطلب من الحسن البصري رسالة[4] ترصد صفات الإمام العادل جاء فيها: « اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل، قوام

---

[1] – مطلغم : متعجرف

[2] –وثيقة : الثقة

[3] – المهجة : الروح أو النفس

[4] الأساليب العربية في النثر العربي القديم، كمال اليازجي ، بيروت، دار الجيل ،ط1، 1986، ص ص : 41-42

[4] – يكنها : يسترها

[4] –الحسن البصري:مولى وأحد الوعاظ والصالحين والمترسلين في الرسالة الدينية خلال عصر بني أمية.

[4] – العصر الإسلامي، ص:463.

[4] – التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د ط]،[د ت] ،ج1 ، ص : 248.

[4] – تاريخ الطبري ، ج2،ص: 270.

[4] – نشأة الكتابة الفنية، المصدر السابق ، ص :80- الأساليب العربية في النثر ع ق ، ، ص ص : 41-42

كل ماثل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف(...) ويكنُّها[1] من أذى الحر والقر ».

والباحث يرى في هذا الأسلوب بداية الاسترسال المطلق، والتحرر من قيد السجع، والاعتماد على التشبيه والطباق والترادف والتصوير والازدواج، وحتى الاتكاء على الحال في جزئية من الرسالة المتبقية، وهذا ما حدا بالأستاذ شوقي ضيف إلى الاعتقاد بأن عبد الحميد وسالماً قد تأثرا برسائل الحسن البصري (ت 110 هـــ) وغيلان الدمشقي[2] وأضرابهما، وحاولاً مجاراتهما وغيرهما من الوعاظ[6].

[1] – يكنها : يسترها

[2] – غيلان الدمشقي : هو مولى أيضاً وأحد الوعاظ والمترسلين في الرسالة الدينية.

3- القصر و التطويل:

أغلب الرسائل المأثورة في هذا العصر قصيرة، وإذا طالت فلم تسهب كثيراً، لأن العرب كان لهم ولع عجيب في اختصار الكتابة، يصح أن تتخذ مثالاً للبلاغة[1].

ولكنها في العصر الأموي بدأت تطول بسبب النزاعات والحروب والأحزاب والفتن، وما يحتاجه الأتباع من تواصل وردود للإقناع ودحض الشبه واقتحام الخصوم، حتى أن الإمام الطبري يقدر أن أول من أطال الكتب هو عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد[2] ولكنه لم ينقل هذه الكتب، وما يهمنا أن الإطالة ظاهرة غريبة عن العقل العربي الخالص لم يعرفها من قبل[3]، ولكن التطويل لم يبلغ مرتبة عبد الحميد الذي أمدَّ فيه مداً ثابتاً وظاهراً.

ولم تكن ظاهرة التقصير في الرسائل ظاهرة أموية، بل امتدت إلى العصور اللاحقة، يدل على ذلك رسالة هارون الرشيد (ت 193 هـــ) لملك الروم(نقفور) ،عندما بعث له كتاباً يتهدده فيه، فاغتاظ الرشيد، وأجاب له على ظهر كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم!، قد قرأت كتابك يا ابـــــن الكافرة، الجواب ما تراه لا ما تسمعه»[4].

وكذلك موقف يوسف بن تاشفين[5] من كتاب الاذقونش ملك الإفرنج الذي بعث به مهدداً ومسهباً في كلامه، فرد عليه يوسف بقوله « الذي يكون ستراه »[6].

---

[1] – التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان، المصدر السابق ، ص : 248.

[2] – تاريخ الطبري ، ج2،ص: 270.

[3] – نشأة الكتابة الفنية، المصدر السابق ، ص :80

[4] – تاريخ التمدن الإسلامي ، المصدر نفسه، ج1 ، ص : 248.

[5] – يوسف بن تاشفين (410-500 هـــ - 1019-1106): أبرز ملوك دولة المرابطين وقد امتد حكمه أكثر من أربعين عاما ، أسس مدينة مراكش و أتخذها عاصمة له.

[6] – تاريخ التمدن الإسلامي ، المصدر نفسه ، ص : 248.

والعرب تجمع بين الاختصار المؤدي للمقصود، وتبتعد عن الإطناب الممل الزائد عن حده، يقول أبو العباس المبرد، « من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخَّم »[1].

ومجمل القول أن ظاهرة التطويل قد بدأت في هذا العصر تبرز حتى إذا جاء عصر عبد الحميد تجلت أكثر، لكنها لم تغيب الإيجاز كما أسلفت.

4 – حلقة سالم أبي العلاء:

سالم مولى هشام أحد رواد الكتابة الديوانية،ويطرح اسمه إشكالات عدة بسبب أصوله اليونانية، ولأنه قام بترجمة رسائل أرسطو طاليس إلى العربية مما يجعل الباحث مرتابا في أصالة نثره ونثر حلقته التي نتحدث عنها، ومهما يكن فإنه يعد أحد الفصحاء والبلغاء العشر، وله رسائل مجموعة بلغت مئة ورقة[2]، ومن هذه المدرسة تخرج عبد الحميد وتأثر بأستاذه سالم، وقد نشر الأستاذ إحسان عباس[3]، بعض رسائله مع رسائل عبد الحميد الكاتب، ويمثل هذه الحلقة: سالم وابنه عبد الله وختنه عبد الحميد الكاتب وتلاميذهم.

[1] – الكامل ، المبرد ، الفجالة ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، [د ط] ، 1956 ،ج1،ص : 27.
[2] – الفهرست ، ابن النديم ، ص ص : 519، 520.
[3] – الرسائل ، إحسان عباس ، ص ص : 303، 319.

وقبل أن أتحدث عن جملة الخصائص التي تمثل هذه المدرسة أسوق هذه الرسالة[1] لعبد الله بن سالم على لسان هشام بن عبد الملك لخالد بن عبد الله القسري، الذي أساء إلى أمير المؤمنين بالتعدي على أحد أقاربه فكتب إليه قائلاً: « فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر، لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب الصنيعة قبلك، واستتمام معروفه عندك، وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تعد لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه، إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة، أبطرته، فأساء حمد الكرامة، واستقل العافية ونسب ما في يديه إلى حيلته، وحسبه، وبيته، ورهطه، وعشيرته، فإذا نزلت به الغير وانكشفت عنه عماية الغي والسلطان، ذل منقاداً، وندم حسيراً، وتمكن منه عدوه قادراً عليه، قاهراً لـــــه ...».

ونرى في هذه الرسالة وغيرها انزياحا جديداً، ومعاني عميقة، وتفكيراً منطقياً في عرض الأفكار، وجمالية في الخطاب ،موشية بالترادف والازدواج واختيار الألفاظ، وتأنق العبارة، والتحرر من السجع، والاهتمام بالفكرة وتنويع الجمل للتعبير عن المعنى الواحد، والاتكاء على الحال لتوضيح المعنى .ولا شك أن هذا أفق جديد في مسار الرسالة الديوانية، تولى سالم نشر هذا التشكل في تلامذته، وتجلت هذه التمظهرات الأسلوبية بشكل واضح في ترسل عبد الحميد، واعتبر بعض الباحثين[2] ذلك انعكاساً للثقافة اليونانية، وأنها صارت

---

[1] – تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، ص،ص: 130، 131، ينظر:نشأة الكتابة الفنية، ص: 133؛ والعصر الإسلامي ، ضيف ، ص: 472.

ملاحظة: إلا أن الأستاذ إحسان عباس جعلها الرسالة رقم: 20 من رسائل عبد الحميد، ص: 215 .

[2] – من حديث النثر و الشعر ، المصدر السابق ، ج5 ، ص :581 ؛ نشأة الكتابة الفنية، ص :80

لازمة من لوازم مدرسة سالم أو حلقته[1] – كما سماها نصار– وكان لهذه المدرسة دور كبير في ترقية النثر الفني، وأصبح يمثل تجربة جمالية في الرسالة الديوانية، فتحت أفقاً جديداً للتوقع.

ثانياً:المسافة الجمالية (la distance esthétique)

يؤكد هانس روبيرت ياوس على أن المسافة الجمالية تحددها إعادة تشكيل أفق التوقع، ومدى اتساع المسافة بين الأفق المتكون من خبرة الجمهور وأفق العمل الفني، فكلما زادت الهوة والمسافة بين الأفقين كان ذلك علامة من علامات الإبداع والفرادة، ويمنح العمل الفني قيمة جمالية؛ أما إذا تقلصت المسافة بين الأفقين فإنه يدل على الابتذال والاستهلاك، ويعتبر هذا العمل الفني أقرب إلى فن الطبخ والتسلية منه إلى جمالية الأدب.

فهل كانت رسـائل عبد الحميد الكاتب انزياحا أسلوبياً جديداً أم شكلت صدمة وخيبة انتظار (déception d'attente) لجمهور المتلقين؟.وما هي السمات التي حددت هذه المسافة الجمالية ؟.

لاشك أن رسائل عبد الحميد تقبلت بقبول حسن من لدن النقاد قديماً وحديثاً، وأشادوا بجمالها ورونقها تثبتها سلسلة التلقيات التاريخية المستحسنة لها، ولا أعلم ناقداً انتقصها وقلل من قيمتها الفنية والجمالية إلا الناقد السعودي عبد الله الغذامي، الذي جعل من عبد الحميد الكاتب خاتمة للبلاغة الشعرية الجامدة، وليس علامة على الانطلاقة الباهرة للكتابة الفنية[2]، يفتقر فنه للنثر الحر الصادر عن العقل[1]، كما وصفه أبو حيان التوحيدي في

[1] – نشأة الكتابة الفنية ، ص : 129.

[2] – لكلمة الفن مدلولان ، الأول عام ، والثاني خاص ، فأما النوع الأول فيصطلح على كل عمل إنساني منظم، ذو هدف معين، وذو حذق ومهارة، كالوراقة و الحياكة و الزراعة و التجارة وغيرها من الأعمال المنوطة بالإنسان، وأما الثاني فيصطلح على كل عمل راق يهدف لابتكار كل ما هو جميل، من الصور والحركات والأفعال .. [فن السخرية في أدب الجاحظ ، رابح العوبي ، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 80،81، ص: أ –المقدمة–].

كتابه الإمتاع والمؤانسة[2]، وواصل الغذامي منتقداً نثر عبد الحميد قائلاً: « كل الذي ورثته الكتابة عن عبد الحميد هو الصناعة والتصنع ومحاكاة اللغة الشعرية أسلوباً ومسلكاً، وقدم نمطاً من الخطاب المزخرف المعتمد على اللعب اللفظي، وعلى التنويعات البليدة في التغيير المكرر لمجرد التأنق وإظهار المهارة اللفظية»[3].

ومع ذلك فإن أدبه بالمقارنة مع أفق الانتظار الذي سبقه يمثل – في نظري – انزياحاً جمالياً يبعد بمسافة جمالية عن سابقيه، ويمنحه الريادة الفنية، وتتمظهر السمات المحددة للمسافة الجمالية فيما يلي:

1 – الارتقاء بالكتابة الديوانية وتحويلها إلى صناعة شريفة:

لم تكن للكتابة الديوانية قبل عبد الحميد مكانة تذكر، ولكنه استطاع أن يحولها من كتابة الهواة إلى كتابة محترفة، تشرف عليها مؤسسة رسمية من مؤسسات الدولة، يتم فيها الانتقاء تم الارتقاء بالمهرة من الكتبة، ووضع لهم برنامجاً تكوينياً يمثل بحق ثقافة الكاتب، وأصبحت للكتابة تقاليد مرسومة وقواعد معلومة، وتحولت إلى صناعة من الصناعات الشريفة يتسابق عليها الناس؛ لأنها أصبحت موصلة إلى المراتب العليا، يقول محمد كرد علي عن عبد الحميد « فنهج للكتاب سبل الإنشاء، وأعلى في العالمين ذكرهم، وشرف صناعتهم، وكانت في الغالب لا تعد عملاً شريفاً من أعمال الدولة ويتولاها في الأغلب الموالي ومن إليهم، فوقر هذا الفن الصعب في النفوس حتى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك »[4].

---

[1] – النقد الثقافي، الغذامي ، ص : 106.

[2] – الإمتاع و المؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، بيروت: دار الكتاب العربي،(1426هـ، 2005م) ، ص : 227.

[3] – النقد الثقافي ، المصدر نفسه، ص : 107

[4] – أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ص : 49.

ولذلك كثر الحديث والثناء على فضلها فقالوا: « لو أن في الصناعة صناعة معبودة لكانت الكتابة رباً لكل صناعة »[1]، وقالوا أيضاً:

« الكتابة قطب الأدب، وفلك الحكمة، ولسان نـــاطق بالفضل، وميزان يدل على رجاحة العقل »[2]، ويقول عنها ابن حبيب الحلبي (779هـــ): «أشرف الوظائف والمناصب،وأرفع المنازل والمراتب، وأفلح صناعة،وأربح بضاعة »[3].

وظل عبد الحميد الكاتب أفضل من مثل الكتاب واستوعب شروط الكتابة، ورفع مترلتها حتى في الأدب المغاربي والأندلسي.

2– ظاهرة التقسيم المنطقي في الرسالة:

كانت الرسائل الديوانية تعرض متداخلة بين الفواتح والعرض والخواتم ويقع الكاتب على الموضوع مباشرة دون تمهيد، فلما تقلد الكتابة عبد الحميد هذبها واعتنى بتقسيم رسالته إلى أقسام رئيسة، يخص كل قسم منها بجانب، ويتنقل بين هذه الأقسام بكثير من الدقة[4].

ولقد أسس بذلك للكتابة العربية منهجاً كتابياً وتقنية لم تكن معروفة لدى العقل العربي، فهو يقوم بتقسيم الفكرة وتنويع العبارات التي تدل عليها، وإذا تناول الفكرة العامة أخذ يقسمها إلى أفكار جزئية، ويتناول كل جزئية بناحية من نواحي الفكرة[5].

[1] – حدائق الأنس في نوادر العرب و الفرس ، العباس الحسيني الكاشاني، القاهرة : دار الآفاق العربية [د ط]، 2003،ج1، ص:21.

[2] – المصدر نفسه ، ص .ن.

[3] – نسيم الصبا ، ابن حبيب ، حلب ، سوريا: دار القلم العربي ، [د ط] ، 1993 م ،ص :105.

[4] – مواقف في الأدب الأموي ، عمر فارق الطباع ، ص : 322.

[5] – المدارس الأدبية ، محمد الصادق عفيفي ، ، ص :61.

وتظهر ظاهرة التقسيم جلية واضحة في رسالة « ولاية العهد »، إذ يظهر فيها عبد الحميد ذا تفكير منطقي، يشقق المعاني، ويقسم كلامه إلى فقرات منفصلة، كل منها يؤدي إلى فكرة منفصلة عن الأخرى وإن جمع بينهما السياق العام، وتحوي الرسالة على مقدمة ضمنها مبادئ الأخلاق والتقوى، ثم قسمها إلى قسمين:

قسم مدني: تحدث عن السياسة المدنية من آداب الملوك.

قسم عسكري: تحدث فيه عن السياسة الحربية.

وأسجـــل هنا تحفظي بخصوص وقفات الباحثين والدارسين مطولاً أمام هذه الرسالة،واعتبار ما ورد فيها دليلاً على تأثر عبد الحميد بالثقافة الأجنبية، وأن التقسيم المنطقي[1]، وتنظيم الجيوش، والمعلومات حول الحرس والجند دخيل على العرب، ولا قبل لهم به.

أشير إلى أن العرب عرفوا عهود الولايات منذ الخلافة الراشدة، ومن ذلك عهد عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، ففيه معلومات عن الحرس والجنود، أي معلومات حربية[2]، ولكنها لم تبلغ مستوى رسالة عبد الحميد من حيث التنظيم والقيمة والمعلومات المستفيضة.

ثم إن عبد الحميد كان كاتباً لرجل حنكته الظروف وخبرته السياسة،و اكتسب من الملك والحروب والسياسة تجربة تؤهله ليكون مشاركاً في ثقافة عبد الحميد، ونحن

[1] – ظاهرة التقسيم منسوبة إلى فيثاغورس ، أحد حكماء الإغريق في فجر الفكر اليوناني ، وكان فيثاغورش رياضيا ، وقد اعتمد الأعداد الرياضية أساساً في فلسفته الماورائية ، ورتب الموجودات على أساس عددي فأشرفها الواحد رمز الألوهية ، و نهبط في درجة الشرف كلما ابتعدت عن الواحد [مواقف في الأدب الأموي ، ص: 323].

[2] – نشأة الكتابة الفنية ، حسين نصار ، ص : 158.

نعلم أن المنصور (ت 158هـ) لما سئل عن مروان بن محمد قال: « لله دره ما كان أحزمه وأسوسه وأعفه عن الفيء »[1] .

وأريد أن أؤكد على شيء هنا، هو أنه لا يوجد عامل واحد بلور هذا النثر الفني الجميل؛ بل تضافرت الجهود، وتراكمت التجربة والخبرات والتفاعلات بين العرب وغيرهم، فولدت جمالية جديدة.

3 – الجمع بين الإسهاب والاقتضاب:

جمع عبد الحميد الكاتب في ترسله بين الإسهاب غير الممل والاقتضاب غير المخل، فأطلق عنان العبارة محرراً إياها من التقفية والإسار، مطولاً في رسائله حتى تصل إلى حجم الكتاب، وأحياناً يوجز ويختصر لدرجة أن يكتب على شكل توقيع كقوله:«يا هذا لو جعلت ما تحمله القراطيس من الكلام مالاً حويت جمالاً وحزت كمالاً »[2]. وسأعود للحديث عن الإيجاز عند مبحث الفراغات لاحقاً.

أما نماذج إسهابه فهي رسالة ولاية العهد أطول رسائل العصر الأموي كما أسلفت، وكذا الرسالة التي بعث بها مروان إلى أبي مسلم الخراساني ، حتى قيل عنها أنها حملت على جمل لكبرها.[3] وما يلفت الانتباه تصريح عبد الحميد بأنه تعلم الإيجاز من مروان بن محمد. . ومجمل القول هو أن عبد الحميد يوجز ويطنب مراعاة لمقتضى الحال .

4 – التطويل في التحميدات:

[1] – شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي ، ص : 184.

[2] – ينظر : الرسالة رقم : 60 ، ص : 293؛ الإمتاع و المؤانسة، التوحيدي ، المصدر السابق ،ص : 182.

[3] – أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ص : 50.

من المعلوم أن عبد الحميد أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب واستعمل الناس ذلك من بعده[1]، وقيل إن التحميد بدأ منذ العصر الإسلامي الأول مع النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وخطبهم، وأن أول من مدَّ فيه وأطال هو كاتب المهلب، أما عبد الحميد فقد أعطاه قواعده النهائية، وتفنن في إخراجه وطوله.[2] ومهما يكن فإن عبد الحميد هو الذي أعطى للتحميدات – وهو فن إسلامي خالص – بعداً جديداً، ووضعه في فصول الكتب، وأجاد فيه وتفنن و لم يقبل بالمعاد والمكرور من القول فيه.

من تحميدات كاتب المهلب[3]:

« الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه، المعجل النقمة لمن بغاه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه، حتى ينقطع الشكر من عباده، أما بعد».

أما عبد الحميد فله تحميد في فتح[4]:

((الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصاعد وعده، الذي قدر على خلقه بملكه، وعز في سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحكمته على ما يشاء من عزمه، مبتدعاً لها بإنشائه أياها، وقدرته عليها، واستصغار عظيمها، نافذاً إرادته فيها ...)).

والباحث يلاحظ تحميداً مسهباً سلساً موشياً بالسجع والترادف وظاهرة الحال، يصلح ليكون فاتحة لخطبة الجمعة، ويتميز عن غيره بالانطلاقة والزيادة في التطويل، ولذلك فهي سنة اتبع الناس فيها عبد الحميد لم تعرف قبله[1].

---

[1] – وفيات الأعيان ، ابن خلكان، ج3 ،ص :229. وينظر : تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د ط] ، 1983،ج1،ص:307.

[2] – نشأة الكتابة الفنية ، ص ص : 82،81.

[3] – جمهرة رسائل العرب، أحمد صفوت، ج2، ص:187.

[4] – الرسالة رقم : 25 ، ص : 272.

ويبدو أن عبد الحميد استلهم تقنية التحميدات والإسهاب فيها من حفظ خطب الإمام علي[2] رضي الله عنه – وكذلك من خطب أصحاب الجدل من المعتزلة والخوارج، ولاسيما خطيب الخوارج واصل بن عطاء[3]، وفي هذا تأكيد على أن ترسل عبد الحميد ليس من تأثيرات أجنبية فقط، بل عمل في تشكله وتطوره الرافد العربي دوراً كبيراً.

4 – جمالية الخطـــــــاب:

نثر عبد الحميد يتميز عن غيره بثراء جماليته، وتنوع خطابه، تفرد به عن غيره، وجمع فيه بين الطباق والمقابلات والصور المختلفة، وخاصة لون الاستعارة من غير اغتراب، وفيه الترادف والازدواج والتوازن الصوتي، ويسرف في استخدام الحال، ويوظف التمييز والمنصوبات، وخاصة المفاعيل والمصادر، يقول في رسالة الصيد[4]. ((وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح وأثقف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظامها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً وأطولها أعضاء قد ثقفت بحسن الأدب، وعوِّدت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت (...) فلم تزل بأخفض سير ، وأثقب طلب وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً)).

وكان عبد الحميد يصنع أسلوبه ويتقنه وينظمه تنظيماً تصويرياً وموسيقياً بديعا، مما جعله يرتقي بفن الترسل إلى منتهاه، من تنوع المعاني، وعمق في التناول، ومنطق دقيق في العرض، وجمال في الأسلوب، وجمع أيضاً بين التصوير الطريف والإيقاع الصوتي الذي

---

[1] – الرسائل ، إحسان عباس ، ص: 145.

[2] – نشأة الكتابة الفنية ، حسين نصار ، ص:82.

[3] – العصر الإسلامي، شوقي ضيف،ص : 474.

[4] – الرسالة رقم : 23 ،ص : 268-271؛ و أمراء البيان ، ص ص : 61-64؛ وجمهرة رسائل العرب، ص ص : 464-467.

يذوب في النفس ذوباناً[1]؛ ولذلك ربعه النقاد على عرش الكتابة في زمانه، ومنحوه صدارة الكتاب في عصره بلاغة وروعة[2].

5 – تعدد الموضوعات وتنوع المجالات:

رسائل عبد الحميد الكاتب ليست ديوانية فقط، ولكن فيها الإخوانيات والتحميدات وغيرها، وربما كان عبد الحميد أول من كتب في الأدب ونوع فيه، فلم يقتصر على موضوع معين، بل كتب في الطاعة، والفتنة، والسلامة، والحرب، والسلم، والصيد والشطرنج، ووصف طغيان نهر الفرات، وولاية العهد، ورسالة وداعية وهو منهزم مع الخليفة، ورسالة إلى الكتاب لم يسبق إليها ولا يستغنى عن مثلها كما قال الجهشياري[3]، ومن المواضيع التي صنفها عبد الحميد وصف الجواري، حيث وصفهم وصفاً مسهباً قـــال في رسالة[4] إلى عبد العزيز بن عمر بن هبيرة في ابتياع جارية ((فابتع لأمير المؤمنين جارية منبتها في أهل بيت صدق من العرب، قد نجع فيها أدبهم، ونالها حسن هديهم، تقعدها الرزانة، ويسكتها الحلم، إن نهضت أثقلتها أردافها، وإن تكلمت تاقت إليها قلوب السامعين، منطقها رخيم، واسعة الصدر، دقيقة الخصر، قامتها مديدة، وأطرافها سباط، فرعها جَثْلٌ أصله، مندل فرعه، قد جلل ظهرها كثرته، حتى ستر بسواده مشتمل القلب، حسنة الثغر، لمياء الشفة، وطفاء الأشفار[5]))، وهذا الموضوع وإن كان قديماً إلا إن جدته تكمن في أسلوبه الجديد، والإبداع في الوصف، والانزياح عن الأفق القديم كالذي تضمن في رسالة[6] المنذر الأكبر إلى أنوشروان ملك الفرس في وصف جارية

[1] – الفنون الأدبية في العصر الأموي، سجيع الجبيلي وقصي الحسين ، ص : 484.

[2] – العصر الإسلامي، شوقي ضيف ، ص :474.

[3] – الوزراء و الكتاب، الجهشياري، ص : 47.

[4] – الرسالة رقم : 7، ص ص: 197، 198.

[5] – كثيرة شعر الأشفار أو الحاجبين

[6] – ينظر : جمهرة رسائل العرب،ج1، ص : 10،الأدب الجاهلي، غاري طليمات، عرفات الأشقر، ص ص: 716، 717.

أهداها له: « إني قد وجهت إلى الملك جارية، معتدلة الخلق، نـــقية اللون والثغر، بيضاء قمراء،وطفاء، كحلاء، دعجاء، حوراء، عيناء[1] (...) ، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغني بفضيلتها دون جماع قبيلتها ».

فوصف عبد الحميد للجارية يبتعد بمسافة جمالية واضحة عن الوصف الجاهلي، ولم أعثر على وصف آخر في صدر الإسلام للمقارنة به. ومن رسائله الدينية رسالة في القدرية، ورسالة في موسم الحج، ورسالة في دخول شهر رمضان. " أخلص إلى القول أن عبد الحميد نوَّع في رسائله، وعدد مواضيعها، وأسهب في معالجتها «الأمر الذي جعل هذا النثر ينفسح صدره لسيول من المعارف وثقافات متنوعة تؤذن بتعدد شعبه وفروعه ومضامينها التي ركضت فيها اللغة العربية ركضاً مرناً نشيطاً واسع المدى، لا تحصى ولا تستقصى معه الخواطر والمعاني»[2].

6 – براعة الاستهلال وحسن التخلص:

يتفنن عبد الحميد في الفواتح والخواتم ، ويعرف أساليب التأثير والإقناع على المتلقي، فهو لا يقع على الموضوع إيقاعاً مباشراً، ولكنه يمهد له بتمهيد

[1] – عظيمة سواد العين في سعته.

[2] مضامين الرسائل السياسية في القرن الثاني و الثالث للهجرة ، رابح العوبي ، عنابة، الجزائر: مطبعة المعارف ، ط1 ، 2003م ص : 16.

جذاب حسب نوعية الموضوع، يقول في رسالة[1]، يعزي فيها هشاماً من مروان ((إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مده إلى أجل مسمى، فلما تمت مواهب الله وعاريته، قبض إليه العارية، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها، أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض، فالحمد لله رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون))، فالبداية غير مألوفة فيها ربط بالعقيدة بطرح جديد، والختام فيه تخلص سلس وحسن يوقع في النفس الصبر والرضا بالقدر.

وفي رسالته[2] إلى الكتاب يقول: ((وأنا أقول في آخر كتابي ما سبق به المثل: من يلزم النصيحة يلزمه العمل، وهو جوهر هذا الكلام وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عـــــز وجل))، وهذا يدل على مهارة وحسن تلطف عبد الحميد، ومعرفته لتقنية الختام، فهو بعد إسهاب وتوجيهات ونصائح يختم أنه هو المطالب الأول بهذا العمل، وهو جوهر كلامه، لتكسبه الاحترام والتقدير من الكتاب.

ومجمل القول إن عبد الحميد قد أجاد الترسل وأبدع في الفواتح والخواتم، في مقدمته براعة الاستهلال، وفي خاتمته حسن التخلص، وزاد حتى عن أستاذه سالم بخطوات، فلنلاحظ هذه المقارنة بين نص عبد الحميد، ونص سالم في موضوع واحد وهو الطاعة.

من رسالة عبد الحميد [3].

من رسالة سالم:[1]	**من رسالة عبد الحميد: 1**
أما بعد، فإن الله تبارك أسماؤه، وجل ثناؤه اختار الإسلام ديناً لنفسه، وجعله دين خيرته من خلقه، ثم اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس فبعثهم به وأمرهم به. **الخـاتمة:** نسأل الله الذي لا إله إلا الله هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم أن يبارك للأمير ولكم في الذي خصني به على لسانه من ذلك وقدر منه، وأن تجعل عافيته سروراً وغبطة، فإن ذلك بيده، ولا يملكه إلا هو، ولا يرغب فيه	أما بعد فإن الله تبارك وتعالى تباركت أسماؤه وجل ثناؤه وتعالى ذكره، اختار لنفسه من الأديان والملل كلها الإسلام، ثم جعل أهله الذين أكرمهم به واصطفاهم له خيرته من عباده، وأهل صفوته وبعث إليهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وسماهم المسلمين وهو الذي شرع لساكن سماواته من ملائكته ولأهل الأرض من أنبيائه. **الخـاتمة:** وأمير المؤمنين يسأله أن يلهمه الرأفة والرحمة برعيته، والإصلاح إليهم

1
2
3

كاتب

215

ويلاحظ الدارس هذا التشابه في المطالع والتناص (intertextualité) بين المقدمتين، وإن كان عبد الحميد أكثر إسهاباً، وأوسع تصويراً وأكثر تخلصاً من العبارة القرآنية، أما في الخواتم فالمسافة الجمالية بعيدة بين التلميذ وأستاذه ، فخاتمة سالم تقليدية مستهلكة، أما خاتمة عبد الحميد فهي السياسة والدهاء والحكمة والأدب والجمال والإبداع والانزياح (écart).

وأصل إلى القول إن عبد الحميد مثل بحق العلامة الفارقة والنقلة النوعية في تحبير الـــــرسالة الديوانية في عصره، وأضاف لها لمسات فنية، ونتفاً من الإبداع والابتكار.

ثالثاً:القارئ الضمني (Lecteur implicite)

معلوم أن كل نظام أو كتابة سياسة تسعى إلى صناعة رأي عام، يعكس صورة الأمير ورؤيته وخططه ومشروع المجتمع الذي يريد الحاكم صياغته، يقول رولان بارت[1] « كل نظام يمتلك كتابته يحتاج تاريخها إلى الإنجاز، ولما كانت الكتابة هي شكل الكلام الملتزم علانية، فإنها تشتمل في آن، ونتيجة لالتباس ثمين على كينونة السلطة ومظهرها، أي على ما هي عليه، وعلى ما يريد أن يعتقد الناس عنها ».

وسعياً لهذا الاعتقاد أكثر عبد الحميد في رسائله من وجوب الطاعة وخطر المعصية، وحذر من الفتن والخروج عن الحكم، وتكاد معظم رسائله تدور في محورين: الطاعة والمعصية.[2]

ويبرز لنا في إحدى رسائله صورة القارئ المتضمن، فهو قارئ مذعن، طائع للخليفة، وإذا نصحهم فهي في أمورهم، وليست في أمور المسلمين، بل جعل الطاعة

1- الدرجة الصفر من الكتابة، رولان بارت ، تر : محمد برادة، ed:seuil ، [د ط]، [د ت]، 1953 ، ص: 83.

2- الرسائل ، إحسان عباس ، ص : 83

مصدر كل خير، والمعصية مصدر كل شر، يقول في رسالة الفتنة[1] ((ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم، والتسليم لما أمروا، ملهم كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية متخللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وفي الخلاف عليهم والمعصية لهم ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل عنية (...) والدعاء لكل بلية، ومقارفة كل ضلالة)).

وبحـــق فإن مثل هذه الأفكار الموروثة في الثقافة العربية هي التي صنعت الاستبداد، وأسست لما يسميه الغذامي «صناعة الطاغية »[2] ، التي برزت في جنس المديح بشكل أسبق وأرسخ، وتجذرت في الخلافة الأموية بحكم عبد الحميد في رسائله التي تتحدث عن الطاعة والمعصية فإنه لم يكن فيها محرراً، وإنما كان لساناً ناطقاً باسم السلطة المطلقة، وهي مفسدة مطلقة[3]، وهذا لو خرج من عباءة السلطان والموالاة له، وانزاح من كتابة هي عين الرق إلى كتابة هي عين الحرية[4].

وتتضمن رسائل عبد الحميد الوعد والوعيد لصناعة القارئ الخائف من السلطان وبأسه مستعملاً سلطة اللغة وقوة البيان ، ليزرع الرعب في نفس كل من تسول له نفسه المساس بمقام الخليفة، ودائماً ما يربط العصاة والخارجين والمعارضين برؤوس الفتنة والشر والشيطان، ويربط أتباع السلطان بـــــجنود الله المقربين والأولياء وألباب الخير كأنه يسحر الجمهور المتلقي بسحر الخطاب وفتنة اللفظة الدالة المرعبة، يقول في رسالة[5] إلى الخارجين عن الطاعة «فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول على الفحول، كأنها الوعول تخوض الوحول»7 وحتى هذه الطفرة من الصناعة اللفظية وظفت للتهويل والتضخيم وصناعة الخوف.

---

1 -. الرسالة رقم : 16 ،ص ص : 209 ، 210.

2 - النقد الثقافي، ص:190.

4- القول الفلسفي، طه عبد الرحمن ، :17.

5 -الرسالة رقم : 19 ، ص ص: 214 ، 215، وينظر : أمراء البيان ، ص ص: 56 ، 57 .

فالقارئ الضمني في بنية ولغة ورؤية عبد الحميد من خلال رسائله يجسد مشروع الخلافة الأموية في الحفاظ على كرسي الخلافة والاستمرارية في الحكم، وهو مشروع تغيب فيه الشورى ويكرس فيه الاستبداد.

رابعاً: الفجوات والفراغات (enclaves et failles)

إن النص، أي نص يمثل كوناً من الرموز والإشارات والشفرات، ويترك فيضاً من الفـــــراغات والفجوات تملأ بالتفسير والتأويل والتقويل والاستنطاق، والقراءة التي تقوم على اكتناه معنى النص وفهم ثيماته والبحث عن المعاني العميقة، وقراءة ما لم يقرأ فيه[1]، تحقيقاً للتواصل ومساهمة في إنتاج الدلالة وتوليد المعنى.

والنص يمارس الحجب والتعمية والإبعاد والإحصاء، ويولد الفراغ بقدر ما حقق من حضور وتغطية، (لأن النص والكتابة – عموماً – لا متناهية شكلاً ومضموناً، لأنها تواجه عالماً لا متناهياً)[2]، فكلما ذكرت أشياء في النص غابت عن الحضور النصي أشياء أخرى، وتزداد مساحة الغياب كلما ازدادت مساحة الحضور والإثبات.

وردت في رسائل عبد الحميد الكاتب بعض المقطعات والكلام الموجز البليغ،وهو الذي يدل على قدرته على التعبير بالإسهاب والاقتضاب، وتمكنه من تكثيف المعنى،ف"الإيجاز هو الإعجاز" كما يقال، ومن أقواله أورسائله الموجزة.

أنه كتب إلى عامل أهدى لمروان غلاماً أسود، وتحرى الإيجاز: ((لو وجدت لوناً شراً من السواد، وعدداً أقل من الواحد لأهديته))[3].

---

[1]- نقد الحقيقة ،علي حرب، المصدر السابق ، ص : 11 .

[2] -الثابت والمتحول ، أدونيس ، ج 3 ، ص : 31 .

[3]- الـــــــرسالة رقم : 40 ، ص 290 ، الوزراء والكتاب ، ص : 53 ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص : 229 ، جمهرة رسائل العرب ، ج2 ، ص :374.

هذه الرسالة تتخللها فجوات كثيرة، وبقع إبهامية، فلا نعرف هذا العامل، ولا مكان ولايته، ولماذا هذا التشاؤم من السواد؟ هل لأنه شعار الدولة العباسية؟ أم لأنه منبع الطيرة؟ ومن أين جاء بمثل: أقل من الواحد؟ وهل صحيح أنه أخذها من كلام العرب كما زعم الجهشياري؟.

ومن الناحية السياسة فهو يحمل سخطاً كبيراً على هذا العامل، ولا نعرف دواعيه وأسبابه، ويحمل دلالات خفية على عدم الرضا، تنذر بالإقصاء والتنزيل في الرتبة، وينطوى الكتاب على عقاب وتأديب لهذا العامل حتى لا يعود إلى مثله. ومن رسائله ما وقعه في رقعة مستميح كان قد بره مراراً، ((قد نفد ما عندنا لمثلك، فارغب إلى من لا ينفد ما عنده))[1].

وهذا النص مليء بالبقع الإبهامية، واللا تحديدات، فلا نعرف هذا الملحاح في الطلب، لا اسمه ولا فصله ولا بلده، ولا نعرف ماذا كان يطلب من عبد الحميد ؟ ولا نوع الحاجة أو كميتها؟.

ويبدو أن هذا المستميح أكثر عليه مراراً، وتردد عليه بشكل متقارب الزمن، ولهذا طلب منه التوجه إلى من لا ينفد ما عنده، ورغم أن الفهم يصرف إلى أنه « الله » تعالى، لكن قد يقال أنه الخليفة أو شخص آخر مثالي غير محدود، وهكذا تتوالد الفجوات والفراغات لتؤلف نصاً آخر من النص الأول، لإيضاح ما غمض منه أو تفصيل ما أجمل، أو تحرير ما اختلط، أو فك شفرة ما أغلق، أو تأويل ما التبس من الأفهام[2]، وما تبادر إلى الأذهان، وهكذا يتحول المتلقي من متلق إلى منتج، ومن مستهلك إلى مشارك في صناعة المعنى وإنتاج الدلالة تحقيقاً للتواصل.

إن التجربة الجمالية لعبد الحميد الكاتب ثرية وغنية. وتمثل انزياحاً جمالياً في عصره، أعاد من خلالها الكتابة الديوانية والأدبية إلى إعادة تشكل جديد، ليهيأ بذلك لأفق

[1] – الرسالة رقم :41، ص: 209.

[2] – نقد الحقيقة ، علي حرب ،المصدر السابق ،ص : 12 .

انتظار جديد في ميدان الدراسات الأدبية القديمة، سايره من بعده الأدباء، بقول طه حسين « أما عبد الحميد فلا غبار على لغته، وربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ، وبلاغة معنى، واستقامة أسلوب، فهو أحسن من كتب العربية ومرنها (...) وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المترسلين وبنوع خاص الجاحظ »[1]، ويقول عنه محمد كرد علي« فهو مخترع طريقة، وكاتب وصاف على الحقيقة، استجمع شروط البلاغة، فعد أمير المنشئين غير مدافع، واستطاب الناس إلى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب »[2] .

وخلاصة القول إن عبد الحميد شكل بأسلوبه ونثره أفقاً جديداً للبلاغة العربية في عصره، وتجاوز المستوى الفني لأترابه بمفازات، واستطاع أن يكون صاحب مدرسة جديدة لها تمظهراتها الأسلوبية المعروفة، وإن كان في بنية نصه قارئ ضمني وفجوات وفراغات تسهم في صناعة الاستبداد، وتكريس الاستمرارية، وخدمة السلطان والتمرغ في عباءته، والأكل من إدامه؛ فالبنية السردية أو الأسلوبية بالأحرى لعبد الحميد إبداع وبلاغه وفن، وأما البنية الخطابية مكر ودهاء وسياسة، تولد الفردية والاستبداد، وتقلص مساحات الحرية والديمقراطية وحرية الرأي.

المراجع والمصادر :

–1 نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، حسين نصار، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، 2002م0

–2الأدب الجاهلي ، غازي طليمات وعرفات الأشقر، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق :دار الفكر ، ط1 ، 2002 م .

–3الحياة الأدبية من البعثة المحمدية إلى نهاية الخلافة الراشدة –النشر أنموذجاً– (أطروحة دكتوراه) للطالب: محمد حجازي ، إشراف: د. طاهر حجار، جامعة الجزائر، الموسم: 2003–2004م .

–4التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د ط]،[د ت] ،ج1 .

–5الكامل ، المبرد ، الفجالة ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، [د ط] ، 1956 ،ج1.

–6الإمتاع و المؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، بيروت: دار الكتاب العربي،(1426هـ، 2005م) .

[1]– من حديث النثر والشعر ، ج5 ، ص ص : 600 ، 601 .

[2]– أمراء البيان ، المصدر السابق ، ص : 91 .

–7حدائق الأنس في نوادر العرب و الفرس ، العباس الكاشاني، القاهرة : دار الآفاق العربية [د ط]، 2003 ،ج1.

–8تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د ط] ، 1983،ج1.

–9نقد الحقيقة، علي حرب ، الدار البيضاء، المغرب: م .ث. ع، ط 1، 2006م .

–10الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، تعليق: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ – 2001 م، (جزآن).

–11البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، [د ط]، [د ت]، (ثلاثة أجزاء).

–12تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مراجعة: نواف الجراح، بيروت: دار صادر، ط1، 1424 هـ – 2003م.

–13شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، تح: لجنة إحياء التراث في دار الآفاق، بيروت: دار الآفاق الجديدة، [د ط]، [د ت].

–14فعل القراءة (نظرية في الاستجابة الجمالية)، فولفجانغ إيزر، تر: عبد الوهاب علوب، مصر: المجلس الأعلى للثقافة، [د ط]، 2000م.

–15الفهرست، محمد بن إسحاق ابن النديم، تح: د. مصطفى الشويحي، الجزائر: وزارة الثقافة، [د ط]، 2007م، (طبع بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية).

–16كتاب الوزراء والكتاب، ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، مصر: مطبعة عبد الحميد أحمد حنفين ط1، 1357 هـ – 1938م.

–17الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، د. كمال اليازجي، بيروت: دار الجيل، ط1، 1986م.

–18وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس بيروت: دار صادر، [د ط]، [د ت]، 7 أجزاء.

–19أمراء البيان، محمد كرد علي، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ–1937م.

–20عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دراسة وإعداد: إحسان عباس، عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 1988م.

–21الحياة الأدبية في عصر بني أمية، د. محمد عبد المنعم الخفاجي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط2، 1987م .

–22الفنون الأدبية في العصر الأموي، سجيع الجبيلي وقصي الحسين، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط1، 2005م.

–23تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، بيروت: دار العلم للملايين، ط8، 1989م.

–24الثابت والمتحول، علي أحمد سعيد (أدونيس)، بيروت: دار العودة، ط4، [دت].

–25من حديث النثر والشعر (ا لمجموعة الكاملة)، طه حسين، بيروت: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، [د ط]، 1982م.

–26مواقف في الأدب الأموي، د. عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم، ط1، 1411 هـ – 1991م.

–27النقد الثقافي، عبد الله محمد الغذامي، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، [د ط]، 2000م.

–28المدارس الأدبية، محمد الصادق عفيفي، دمشق: دار الفكر، [د ط]، 1971م.

–29في المناهج النقدية المعاصرة ، شعيب خليفي: http://www.dahsha.com تاريخ الزيارة: 2009/03/22.

***